من فرائد الشعر الغنائي

في بعض اللغات غير الهندية الاوربية

بقلم الاب رفائيل نخله اليسوعي

منذ سنة ١٩٦١ نشرنا في هذه المجلة ثلاث مقالات عن فرائد الشعر الغنائي في اللغات الهندية الاوربية . وقد رأينا ان نضيف الى تلك السلسلة الذهبية بضع حلقات جديدة من ألسن اخرى . لا يكاد يعرف معظم الناطقين بالضاد شيئاً من آدابها الرائعة ؛ وهي السريانية : العبرانية : المالطية : المجرية . الفنلندية والتركية . ربما جهل بعض قراء « المشرق » ان المالطية ، التي يتكلم بها اهالي جزيرة مالطة : هي لغة مشتقة من العربية الفصحى : وقد اندمج في قاموسها آلاف من الكلمات الايطالية : ولا سيما الدالة على معان مجردة . هي اول اللهجات العربية التي ارتفعت الى المستوى الادبي : وقد طبعت فيها . بابجديتها اللاتينية . مئات الكتب في جميع انواع الأدب .

بما ان الاتراك قد حكموا مدة نحو ثلاثة قرون على بلاد الشرق الادنى : قد جعلنا لفرائد شعرهم الغنائي الحديث المكان الارحب في هذه المقالة .

سنقدّم الى قرائنا الاعزاء تعريبنا الدقيق لثماني عشرة قصيدة : منها سبع عشرة في وصف احوال النفس : من المهد الى اللحد : وواحدة فقط على الله تعالى : من نظم جناب شهاب الدين التركي (١٨٦٩–١٩٣٤) . فيها يبدي فرط اشمئزازه من طوفان الخطايا الذي يغمر الارض منذ ظهور البشر فيها : فيتوسل الى الاله الرحمان الغفور ان يمد يده الى خلائقه الاثيمة الغائصة في لجة اليأس .

« في اثناء سجداتي تطلب عيناي كل ليلة نجمة في اعلى القبة الزرقاء : فاني اودّ لو اني اهبط عليها وابكي : قل لي ، اللهم : اين ركبتاك[1] . ايلومنا ويجرّمنا عدل الله بسبب دنسنا على الكرة الارضية ؟ من الذي انشأ الكرة من

(١) يسأل الشاعر هذا السؤال لانه يتمنى ان يخر عند قدمي مولاه ساجداً مستغفراً .

الطين ؟ من الذي خلق قلبنا من الطين ؟ ولو كنا مئة الف سنة . فان صوت لا يتجاوز الآفاق والمسافات : السماء طرشاء والارض طرشاء والهواء ابكم ...

اننا امناء عاجزون . ايها القدير ! اذا كان وجه البسيطة مفعماً بادناس الآثام . فان إناء السماء مُترَع بالغفران . فافتح له مجرى وليتطهر كل البشر ! مُد يدك . يا ربي . الى الارض اليائسة . لتستر خطيئتنا بالعفو ! لقد سمعتَ زفيرنا ستة آلاف عام : فحسبك . يا خالقي . مُد يدك ! »

كرم بسايلا Carm Psaila . الشاعر المالطي المعاصر المقلق . يصف لنا في قصيدته « وحدتي » شتاء طفولته البريئة المرحة . نعيم حياته بين امه واخوته . تحاسس وضه الفاتنة لسطر والسمع . وقد زان ذلك الوصف بكثير من الخيالات الطبيعية المبتكرة .

« كانت ليلة هدوء لذيذ . القمر مضيء من اجمل سناء . وكل شيء صامت على طول الساحل ؛ وعلى وجهي نسيم لطيف من اللطف النسام . كنت على حافة صخر . وعند قدمي تصل الموجات واحدة فواحدة وتموت . كان البحر والضفة الصغيرة يتلاثمان ؛ وهو جاث بجانبها سعيداً وصامتاً .

طار فكري الى هناء طفولتي ؛ الى الزمان اللذيذ ؛ زمان الحياة الخالية من الهم . اذ كان كل شيء منزهاً عن الخطيئة ؛ اذ كان كل شيء يوافق قلبنا . وقد تذكرتك . ايتها الاشجار المظللة لوهاد اجمل الاودية ؛ تذكرتك ؛ ايتها الفراديس المعرضة للشمس ؛ ايتها الاراضي والسهول والتلال والجدران . وخيل لي اني اسمع صوتي مرة اخرى يرن في وسطك ضاحكاً وفرحاً . واسمع تغريد القنبرة [1] في الجو . واسمع اغنية الفلاح القوي ؛ او اني اتطرف واتسلق واتسكع بدون تروٍّ في ما يمكن حدوثه بعد حين ؛ بدون تفكري هل تحرق شمس آب ويصيبني برد شديد يجعلني شاحباً كالثلج .

تذكرتكم ؛ ايها الصبيان الاجراء الذين احببتكم للطف قلبكم ؛ وكنت معكم في الكنيسة والمدرسة او على حافة بيت ؛ والطيارة معي . واهاً لذلك الزمان ! اذ كان الخيط [2] في يدي . ونظري محدّق الى نكتة سوداء في السحاب . كنت اتوهم اني حاكم السماء ؛ وكأني موجود في السماء .

تذكرتك ، ايتها الدار السعيدة الجميلة ، دار ملأى بالمحبة والرفاهة ؛ دار

(١) الكلمة المالطية تعني نوعاً من الطيور الصغيرة .
(٢) خيط الطيارة .

اني : دار امي واخوتي : دار شعل العقل واليد . الأم ! واهٌ لحلاوة هذا الاسم ولطفه ! الأم ! كلمة الفرج في الضيق . الأم ! كلمة الرحمة في الخطيئة . الأم ! الكلمة التي تسكّن الدم .

شعرتُ بدمعة تتدحرج على وجهي ، دمعة محرقة كشرارة نار ! تلك السعادة المجهولة قد مرت عليّ وزالت كهبة ريح . في انقباض قلبي السابق وصفه . عاد فكري الى الوراء وانتهى الحُلم : فوجدت ذاتي وحدي على حافة الصخر » .

اما الشاعر العبراني المعاصر موسى رات Rath ، فانه يتوق توقاً مضنياً الى تجديد افراح اعوام صغره : بعدما افتقدته شهوات انتساب الجامعة ووجد كروب الحياة المتواترة . السلام المولود من الايمان . والسرور الملازم للبراءة قد عبّر عن كل ذلك في « اعيدوا اليّ طفولتي » بايجاز لبق .

«اعيدوا اليّ طفولتي ، يمامة الاغاني ، الفرح الدائم . الحقول المذهّبة ، سماء النقاوة ، ايام الطفولة ، الطفولة الساذجة !

اعيدوا اليّ احلامي الوافرة السحر ، الكثيرة الالوان . فهي التي شرحت قلبي اوانئذ !

اعيدوا اليّ اناشيد اللذة . رفقائي شاهدوني اذ ذاك في السعادة ، ومن قلبي الملآن نبعتْ عندئذ اطوار الشباب . الضحك والاحاديث . لم يفت الوقت : فان نفسي تائقة الى الحياة ، وعواطفي قد انفجرت فيّ كالينبوع ، منذ رفعت نفسي الى الآمال ، ضاقت عنها كل اعوامي !

اعيدوا اليّ دموعي ايضاً : لكي تنعش فؤادي الآنْ ، قد زال عني الايمان ، لان الكروب قد احزنت روحي !»

بعد هاتين القصيدتين المختصتين بتصوير هناء الطفولة ، نزف الى القراء ثماني ملتهبة التهاباً بنار حب الوطن ، وهي حفنة من كتيب في شعر الاتراك والمجريين والفنلنديين . لا بدع بذلك ، فقد خاضوا مراراً ، بشجاعة الابطال المستميتين ، معامع الحروب الطويلة الماثلة ، لتوسيع نطاق سيادتهم . وعلى الاخص للدفاع عن استقلالهم .

اسكندر پاتوفي Petofi المجري (١٨٢٣ – ١٨٤٩) يبوح لنا في « نشيد وطني » ، بهيامه ببلاده في السراء والضراء .

« انا لك. لك : يا وطني . هذا القلب وهذه النفس ! من أُحبه لو لم احبك ؟ بيد اني لا اقول لاحد ولا اصيح مصرحاً بانك اعز ما لي في العالم الكبير ! اني اتبع خُطاك سرًا وبامانة دائمة : لا مثلما يتبع الظل المسافر حين الصحو فقط. ولكن كما تكثُر الظلال عند قرب الليل : هكذا يزيد حزني عند انتشار الظلام عليك . يا وطني ! »

تنزل كيشفالودي Kisfaludy المجري (١٧٨٨ — ١٨٣٠) يصف لنا في « وطني » مرارة تباريحه في الاغتراب الطويل وفرط شوقه الى مسقط رأسه .

« يا حدود وطني الجميلة . هل اراك يوماً من الايام ؟ حيثما ثويت اوذهبت . في كل مكان انظر اليك وحدك اذا وافى طير . سألته : « الا تزال في التلاح يا وطني ؟ » هذا ما اسأل عنه السُحب والرياح الحرارة . لكنها لا تعزني بل تتركني منفردًا مع قلبي الحزين . فأعيش وحدي مع قلبي الحزين كالعُشبة النابتة على صخر ! ايها المسكن الصغير الذي وُلدت فيه ، اواه ! لقد سقطتُ في بعد شاسع عنك ! سقطت بعيدًا عنك مثل الورقة التي يخطفها الإعصار ! »

اوردان سيفي التركي : المولود سنة ١٨٩٠ : قد عبّر في «ارض الاناضول» ، تعبيرًا احرّ جدًا عن شوقه الدائم الى قُطر ميلاده : بعد اعوام الفراق : ولو تحتم عليه ان يتاسى فيه شدائد الفقر المدقع.

« ليتني التقي بذاتي بين ذراعيك بقلب حامل : منذ اعوام : عبء الشوق اليك ! ليتني اختلط انا ايضاً : يوماً من الايام ، باولئك السعداء العائشين في حضنك ! لو تم لي ذلك ، لعددتُ اشد زواياك انفرادًا واضمالاً مساوية بجمالها جنة إيرم [1] . واخترت بيتاً متهدماً من بيوتك او موقدًا منطفئاً من مواقدك بدلا من هذه القصور الفخمة !

اني لا اشعر بكبريائي القومية الا في هوائك اللذيذ المحبوب ، ولا اسير رافعاً جبهتي الا في جبلك وسهلك ! فاقول لذاتي : « انا حر ، انا اشد حريةً مما كنت . ولو قُيّدت رجلي بقيدك ! » ويزيد تجلي فرحي عن قدره الحاضر . ولو كان مسكني في سجنك ! حبذا لو وصلتُ يوماً ما الى حضنك : فاسكب من عينيّ دمع الفرح ، واجول في ظل رابتك ، والثم ارضك وحجارتك لثماً مكررًا ! »

(١) اسم جنة بديعة حيأها شخص من اغنياء اليمن لأعز بناته .

انيس سهيج التركي . المولود عام ١٨٩١ . قد اجاد كل الاجادة في « الرباعي » ، وصف شعبهم بالبحر الازرق الفسيح . الذي تمخر فيه سفينتهم الشراعية ، غير مكترثة لهبوب العواصف وتلاطم الامواج المزبدة . وقلوبهم لا تزال مولعة بالوطن البعيد ، عطشى الى الوقوف على اخباره .

« نحن الفتيان . ابطال الامواج والعواصف . نحول من آفاق الى آفاق . في طلب الاخبار . لقد هجرنا المنحدرات الناعسة في ضياء الشمس والحقول الهادئة القلوب ، واعرضنا عن حب الاشجار الظليلة . انت محبوبتنا ، ايها البحر . وما نحن سبّاح في اقطار الزرقة غير المحدودة . هذا الماء الاخضر ، المتلالئ في اشعة ذكاء . هو اخو روحنا . وعلّتنا هو احتدام المياه الخضراء نحن الفتيان الاتراك . الذين لا يحيط بنا الحصباء عازمون على بذل نفوسنا في سبيل العلم !

ايتها الرياح الآتية الينا ببشائر من الوطن . أصدقينا الخبر : هل سألتك عنا الصبايا ذوات العيون السود . عند مناجاتهن للقمراء في ليالي الصيف : على تلك السواحل الشقراء ؟ اي جواب احارته لحن من السماء تلك النجوم الوفيّة ، هادية سفينتنا ؟

الشمول في هبوب ، وقد انتفخ الشراع ، فكأن السفينة مجنّحة ؛ فما الذ هذا السفر ، والشمس الوردية باسمة في الطمطام ! فانشر طُنبورك ، يا اخي الباسل ، بدون اكتراث لصروف الزمان ، فان نغماتك لأسعد من هذه الامواج المتعالية ، ولنبعثْ بهذا اللحن الى الوطن المحبوب ! »

ميخائيل ڤوروشمرتي Vörösmarty المجري (١٨٠٠—١٨٥٥) تُعد قصيدته « مناداة » ، التي صارت نشيد بلاده الوطني ، من ابدع القصائد الوطنية . يصف بها بخيالات انيقة وعواطف متأججة ، ما خاضه قومه من مئات المعارك ، وما سفكوه من قناطير الدماء ، للحر الغزاة الغاشمين ، ولا سيما الاتراك .

« كن ، ايها المجري ، بعزم لا يتزعزع ، اميناً لوطنك ، فهو مهدك وفيما بعد مدفنك اللذان يعتنيان بك ويغطيانك كل التغطية . ليس لك في خارجه مكان في العالم الكبير ، فيتحتم عليك ان تحيا وتموت هنا ، اباركتْك يد النصيب ام لعنتك .

هذا هو البلد الذي سال عليه دم آبائك مراراً لا تحصى ، وقد ضم اليه

الف عام كل الاسماء[1] المقدسة . هنا حاربتْ في سبيل الوطن جيوش ارباد[2] ذات البطولة . هنا كسرت بير العبودية ذراعا هُنياد[3] ! ايتها الحرية . هنا حملوا راياتك الملطخة بالدماء . وتجندلت صفوة قومنا في اثناء القتال الطويل . وبين تلك الكبات الكثيرة البشيرة : وبعد شقاقات عديدة جداً . يحيا في هذا الوطن شعب لم يُكسر وان كان مقلّلا ! وهو يصيح بك صيحة البسالة . ايها العالم العظيم . يا وطن الشعوب : « الف سنة تألم تطلب الحياة او الموت ! »

لا يمكن ان تكون آلاف القلوب قد سفكت الدم سُدى . وآلاف الصدور الوفية قد تمزقت في الدواهي لاجل الوطن ! لا يمكن ان العقل والقوة والعزم المقدس الى اقصى الحدود تنثني تحت ثقل عبء اللعنة ! بل يجب ان يأتي ثانيةً . وسوف يأتي ثانيةً عهد اصلحُ . تتنهد الصلاة الحارة توقاً اليه . على شفاه مئات الالوف ! وإلا فسوف يأتي . اذا تحتم ان يأتي . الموت الامثل . الذي يتنفس بعده القُطر اجمع في الدماء حين الدفن والقبر الذي يُلتهم فيه قوم . تحيط به عدة شعوب . وتبدو عبرات الحداد في عيون ملايين البشر !

كن : ايها المجري : بعزم لا يتزعزع : اميناً لوطنك ! هو الذي يمنحك الحياة . واذا سقطت ميتاً . فهو يغطيك بكُتَل تربته . ليس لك في خارجه مكان في العالم الكبير . فيتحتم عليك ان تحيا وتموت هنا : اباركتْك يد النصيب ام لعنتك » .

اسكندر پاتوفي يدعو مَواطنيه ، في « نشيد قومي » . الى كسر اكبال العبودية التي يرسفون فيها : مضرماً في قلوبهم نار الوطنية باسمى المغريات . فكأن ادوار قصيدته حُمم منفجرة من بركان .

« قم . ايها المجري : فان الوطن يدعوك : هذا هو الوقت الموافق : فتلبّي الوطن الآن او لا تلبه ابدا . انكون عبيداً ام احراراً ؟ ذلك هو السؤال . فاجيبوا ! نُقسم بالله المجريين . نقسم باننا منذ الآن لن نكون عبيدا !

---

(١) اسماء ابطال الوطن .

(٢) ارباد (Arpad) فاتح مجري شهير ، مات سنة ٩٠٧ : وكان جد القديس اسطفان الاول ملك المجر .

(٣) هنياد (Hunyade) اسم عائلة مجرية شريفة : من اشهر اعضائها للملك متّيا كورفان (Corvin) (١٤٤٣—١٤٩٠) المشتهر بشجاعته في الحروب .

كنا عبيداً الى اليوم . فحكم علينا[1] حدودنا الذين عاشوا وماتوا احرارا . فلا يستطيعون ان يستريحوا في بلد مستعبَد . نقسم باله المجريين . نقسم بانا منذ الآن لن نكون عبيدا!

نذلٌ ونكدٌ هو الرجل الذي لا يجسر ان يموت اليوم . عند اللزوم . الذي حياته الشبيهة بالاسمال اعز له من شرف الوطن ! نقسم باله المجريين . نقسم باننا منذ الآن لن نكون عبيدا !

السيف اسطع من الكبل : وهو اكثر منه تزييناً للذراع . ونحن مع ذلك قد حملنا الكبول : فهلم . يا سيفنا القديم ! نقسم باله المجريين : نقسم باننا منذ الآن لن نكون عبيدا !

سيغدو اسم الحر مرة اخرى جميلاً وجديراً بصيته الكبير القديم . فلنمحُ عنه الاهانة التي دنسته بها العصور ! نقسم باله المجريين . نقسم باننا منذ الآن لن نكون عبيدا !

حيث تتكون من قبورنا رابية . سوف يخر احفادنا على وجوههم . فيضيفون الى صلاة البركة ذكر اسمائنا المقدسة : نقسم باله المجريين : نقسم باننا منذ الآن لن نكون عبيدا !»

فايكو كوسكنيامي Veikko Koskenniemi الفنلندي المولود سنة ١٨٨٥ . قد بلغ اوج الابتكار والابداع في «نشيد لحرية فنلندة» . قد وصف فيه التوق الحار الى الاستقلال الذي اقتى قرون مواطنيه طول عدة قرون : وملايين التضحيات التي بذلتها اجيالهم المتوالية : ليروا فجر الحرية لائحاً على افق بلادهم التاعسة . القصيدة برمتها مناجاة غرام للحرية : التي يعدّها الشاعر كأنها تجسد المثل الاعلى لقومه المحبوب .

وصه : ايها الشغل اليومي : أسكتا ايها الرجاء والتوق ! ايها الزمان . ذرْ نهرك الزاخر يهدأ ساعةً : لتكون عيننا هادئة وتكون ارادتنا عظيمة في ساعة الانجاز . في ساعة من العصور : ليكون صدرنا نيّرا . ونفسنا متأهبة للسعادة : اذ يكون الوقت قد انتهى : واعظم ساعاتنا قد وافت . اواه ! يا حرية : انت المتوق اليها كل التوق تحت اعلى الكواكب : قد اتيت اذاً الينا : وانت اعز ما لنا . عروس احلامنا : مشتهاة العصور : مشعل عيوننا !

أنظري : في كل صدر يخفق فؤاد مفتون بك ! انظري كيف تبل الآن

(١) «حكم علينا» هنا بمعنى الحكم على مذنب .

دموع الفرح طريق خطاك ! وحيث كانت العبودية والليل ، جاء الضياء والحرية . ايتها السامية : نحن لا نتوج رأسك باحلى الزهيرات . فان العار وجنّات الورد لا تنمو عندنا . لكننا نرمع الى كل نواحيك تاج آلام شعبنا ؛ فقد رانه القرون بالدموع والدماء . والقرون الحرساء والاجيال هي لك وحدك !

انت كنت املنا : كنت ايمانا — اوّاه ! — يا حرية ، انت المتوق اليها كل التوق تحت اعلى الكواكب . هل اتيت الينا . اهنا صرت عندنا ؟ انت المنتظرة في اثناء العصور الطويلة . في اثناء الليالي . صرت هنا الآن عندنا وحدك . فدومي ايضاً . بالاصابع تبرّدين . انت السامية ، حرق جبهتنا . وقد محوت عنا عار العبودية . فباركينا انت . يا سامية . نحن الذين نشاهد محياك حين انتهاء الزمان وانتظار العصور باركي المرتى الراقدين في الموت . وهم مؤمنون بك . الموتى في ارض بلادنا . الذين لا يرون وجهك ! باركي الجيل النامي . وكذلك جيل غير المولودين . لتزيد قوتنا بقوتك ! باركي عمل ايدينا التي قيدتُها الكبول من زمن قريب . وجودي على افكارنا بالارتقاء الى سموك : حيث الحكمة والقدرة والحلم والعدل متساوية .

أنظري : ضحيتُنا على مذبحك جديدة على الدوام . انظري : فانا : بصفة شعب ، نحلف هنا واقفين امامك : بان طريق الطاغي لا يذهب اليك الا على صدرنا ، وبعدما تكون آخر ذراع قد انقضت محاربةً : وفي قبضتها قائم السيف ، وتكون آخر قطرة دم قد انسفكت : ايتها السامية : امام وجهك ! وذلك لانك اعز ما لنا ، انت موضوع توق العبودية الشديد : لان تاجك قد شُري بفدية الم العصور ، قد شري بالأحلام والدماء والزفرات ! جميلان هما الحياة والموت : ايتها السامية ، امام وجهك : وسهلٌ الرقاد في ارض بلد حر . اوّاه ! يا حرية ، انت المتوق اليها كل التوق تحت اعلى الكواكب ! »

الوطنية الصادقة ليست مختصة بالجنود ؛ ولا محصورة في الثكن وساحات القتال : فان من واجبات كل انسان ان يواظب على خدمة وطنه باتقان جميع اعماله المألوفة اليومية ، المطابقة لحالته الاجتماعية وحرفته العقلية او اليدوية . لله در ضيا كوك الب Gök Alp التركي (١٨٧٥ — ١٩٢٤) في قصيدته الرائعة « الى الرجال » جعل التركيات الصغيرات يفضّلن لذكور بلادهم اشغالهن البسيطة في المدرسة ، وعلى الأخص في البيت : لاعلاء شأن الوطن ، وقد اضفن الى وصف مآثر نساء تركية طول حرب الاستقلال ضد اليونانيين والفرنسيين والارمن ، حول سنة ١٩٢٠ .

« نحن بنات الوطن الصغريات مكبّات على درسنا . آلمات كل ما امرنا به الاله العظيم . ليس لنا بندقية . غير ان ابرتنا في يدنا ؛ وكل جهادنا بالابرة . من التي تضمد جرحكم ؟ من التي . بعد شغل كل يوم . تخيط لكم الاقمصة والصدّر ؟ بعد ذهابكم الى الجبهات العديدة . من التي تعتني بداركم ؟ من التي ساقت محراتكم . وانتم ترمون الاعداء بالقنابل ؟ من التي حملت اليكم المؤونة على كتفيها الى الحدود ؟ من التي نشرت الرجاء والايمان ؟ من التي افسرت الحقد على خصومنا وبسطت الراية السوداء ؟

بيننا . نحن ايضاً . العاملات والشاعرات والمجتهدات في كل الحرف ؛ على ان حبتنا هي البيت . فنتصحّي في سبيله بكل انواع الجد ! اذا كان وطني تحت وطأة التهديد . فانقاذه دَين عليّ . لكنّ مهمتي بعد ذلك ان اكون ربة بيت . انا ايضاً اقتني العلم . بيد اني لا اسمي البيت سجناً ! قال مرشدي الشيخ المحنّك : « لا سبيل الى فصل المرأة عن البيت . ولا البيت عن المرأة . » ان كان المجتمع جسماً حيا . فالعائلة خليته ؛ وان كان الفؤاد جنة لذيذة ؛ فان نافذته مطلّة على البيت . في هذا العالم شيئان جديران بالمحبة ؛ الوطن والبيت ؛ فاذا جعلنا البيت زاهراً ؛ تحول الى جنة !

يا اخي . إجتهد انت ايضاً لتجعل الوطن زاهراً بواسطة حرفتك . إنطلق الى اوربة وتدرب على العلوم . ثم تعال الى الوطن بمقتناك منها ؛ اياك ان تعدّني متفهقرة وتقول انك انت وحدك قد تقدمت ! اذا كنتَ اسير الواجب . فانا ايضاً من جملة جنوده ! يا ابن الاتراك . نحن كلنا قد خرجنا من مهد واحد ومن مدرسة واحدة ؛ قلبك مصوغ من الفولاذ الخالص ؛ اما قلبي انا . فمفعم بالمحبة ! »

بجانب الشعر الوطني . الذي حرك اقلام عشرات من نوابغ التعريض التركي . نرى لآلام الحياة وبلاياها الفادحة مكاناً رحباً في دواوينهم . بيد ان اكثرهم ينظرون اليها نظرة التشاؤم والقنوط . لانهم لا يستشفّون وراء ظلماتها الحالكة . انبلاج فجر ابدية كاملة السعادة . في جوار الله تعالى . إسمعوا سليمان نسيب (١٨٦٦—١٩١٨) يشكو في قصيدته « نحو الحقيقة » امرّ الشكوى من سيطرة الكذب والظلم على عالمنا التاعس .

« بينما يقهر الشقاء البشر كل يوم بالم جديد ؛ فيموتون كل يوم موتاً

حزبياً حديد . يرتخون رؤيا المستقبل الحلوة المريحة . البادية في آفاق رجائهم. كان الماضي على الدوام مسرحاً ملؤه الدماء والمظالم . وها هو الحاضر فيه بعض الخلى . غير انه هو ذلك المسرح بعينه . اما المستقبل فلنوقن انه هو ايضاً مظلم كالماضي . اما المستقبل فلنوقن انه ايضاً قديم كالماضي... علمني اذاً لمحدثنا يا يد السخاء . يا يداً منقذة ! وانت . يا ضياء الحقيقة . أفهمنا وانعم . افهمنا ان كل شيء كذب ! افهمنا ان ذكر كلمات كالعدل والتسدد لا يزال يصاحبه سفك الدماء المكرر والقوة المتلبسة باسم الحق . حسبنا شقاء . معمّ الانسان الانسانية !

ملايين يكتبون يقاسون في كل القطر امر العراء الفقر المدقع . ملايين يكتبون تحت القطر الا معجيراً بالعرق المرير وبدموع السحيقة . بل بدماء قريبهم المجروحة على الدوام بسهام الرزايا وبتسلط شراسة احوالهم البشر. لقد اثار مشهد تعاستهم قرائح طائفة من اعظم الشعراء الاتراك ؛ فتفننوا في وصف مقدارها . حاثين اهل المروءة على الاحسان النحي الى الفقراء . قصيدة « الفتاة بائعة الثقاب » لمحمد امين . المولود سنة ١٨٦٩ . تُعد من غُرر القصائد في هذا الشأن النبيل .

« ثقاب . ثقاب . سادتي . العُلب الثلاث بعشر بارات . سادتي الرحماء . امي مريضة ولا خبز لها . خذ هذا . يا عزيزي . واعطني عشر بارات . أنظر الى شعر هذه الصبية [1] الاشقر المتشعث . الى السواد تحت عينيها . الى وجهها القذر الملوّح . الى ثيابها البالية . الى الحذاء الضخم على رجليها . هذه الصبية الفقيرة . من اجل لقمة خبز . تطوف طول النهار بالشوارع قائلةً : « ثقاب . ثقاب . » كم وكم تسمي ذوي الوجوه القبيحة المجرّحة « ايها البك الجميل » . وربما فعلت ذلك مئة مرة في النهار . يقول لها احدهم : « يا ابنتي من ابوك ؟ اين بيتك ؟ ساعطيك اربعين بارة . ولا اطلب منك « سوى جواب سؤالي . الا اب لك ؟ الا تعرفينه . يا بنيّتي ؟ » فتجيبه : « لا اب لي ؛ اني لا اعرف اباً . الصبية الفقيرة غريبة في كل مكان . كل « الناس يؤلمونها بقسية شائنة . ليس من يقف عندها ويمد على جسمها « الضعيف جناح رحمته ! لا يوجد قلب واحد يخفق من اجلها ! الى هذا « اليوم لم تعلم ما هو الاب . انها تسعى لمعيشتها ؛ وماذا تفعل بدون ذلك

(١) تعني بائعة الثقاب ذاتها .

« السعي ؟ ما من طريق تسلكه غير السعي . من الذي يهتم بها ؟ من الذي « يقول لها : خذي كسرة الخبز هذه وكليها ؟ كل من يعطيها شيئاً يطلب منها « مقابله ! »

اوّاه على الفقراء ! اواه على الاطفال الذين لا اب لهم ! »

منها تثلث وطأة اوجاع الحياة واحزانها . فان الامهات ، باتقان تهذيب اولادهن . يُزلن عنهم اشد الآلام والكروب . وهي الناجمة عن الشهوات الجامحة الامّارة بالسوء ، ويوفّرن لهم اعظم الافراح والذها . لقد عبّر محمد امين عن كل ذلك تعبيراً شعرياً محضاً في « ليلة ولادة ابني » .

« — لا يبكي[1] .

— لا تقلقي[2] . فلن يطول عليه الوقت حتى يبكي بكاءً كثيرا ! سيأتي يوم تُظلم فيه حياته من شدة البكاء ، وتغور عيناه السمنجونيتان ، ويصفرّ ورد وجنتيه . وينتأ عظم صدغيه ، وتغور يداه النحيلتان ! تقولين : « لماذا يسكب الانسان الدموع ؟ أنظر الى الطبيعة ، وهي تضحك لوجوه الناس في « كل مكان ، انظر الى المحاسن البهية التي تنثرها الآن في كل صوب . انظر « الى كل شيء ، فانه مستحبّ ، لذيذ ، واهاً للنور والزهر في جميع الجنبات ! ايمكن البكاء في عالم بالغ ذلك الحد من الجمال ؟ »

— اجل . فان كل شيء خيانة وكل شيء فخ ، حتى صدر الصديق ذاته هو صدر عادم الوفاء ، فكيف ، والحالة هذه ، يكف الانسان عن البكاء ؟ يا زوجتي العزيزة ، متى حلّت تلك العواطف الملاكية الموجودة فيكن ارواح الاولاد ، زاد سرور ابناء البشر عن قدره الحاضر ، فيزيد ضحكهم بعض الزيادة . وينقص بكاؤهم بعض النقصان ! »

حياتنا على كل حال ، جهاد شاقّ دائم ، لا بدّ للانتصار فيه ، من شجاعة عظيمة . محمد امين في مقدمة الشعراء الاتراك الذين حثوا مواطنيهم على اقتحام معارك الحياة وخوض غمار اهوالها ، بعزيمة الابطال الموقنين بانتصارهم النهائي على اشد المصاعب . اصغوا الى ما قاله في قصيدة « السائر » لاثارة اخيه الخامدة .

(١) هذا قيل زوجة الشاعر عن ابنها الحديث الولادة .
(٢) هذا ابتداء جواب الشاعر .

ـ هيت العاصفة ! !

ـ فتأهب ولتستنشط عصبا . امّا انت . فتقدم في طريقك بخطوة دفع شديد ذا . لا تقف بل امش . ولتتورم رجلاك من السير . فان المرء ينجو من الموت بسيره الى الامام ! تمايل بل اعثر . فلا بأس بذلك . ابتعد عن هذا مضيق . اركض وتقرب الى منزلك بكل خطوة تخطوها ! سر ثم سر . لا تبقَ في نصف الطريق . إيه الى الامام !

ـ آه ! لقد تدهورت الثلوج بسرعة الطيران !

ارى ذلك . ولكن ماذا ينتج عنه ؟ تقدم انت في طريقك بخطوة دفع شديد . لا تقف بل امش . فان المرء . اذا اراد . يسخر الحياة . ويشيء بسير من اجهد يضحي مكان لتصحير طريقاً . بشر الى قمة هذا الجبل الوعر . العمودي المنحدر ، هردا اثر اقدام عليها . وكل ذلك يدل على الماربين قبلك . سر اذاً ثم سر . وحسبك جبانة ! »

من لا يرى في هذه الدنيا الزائلة سوى مرتع لنهم اهوائه السافلة . لا يفتأ يسعى وراء المال والملذات . ولو تحتم عليه بيع ضميره لاقتنائها . اما الواجبات السامية التي فرضها عليه خالقه ومولاه — ومن اهمها الخضوع لارباب السلطة الشرعية — فيضرب بها عرض الحائط . لقد عظّم ضياء كوكب الپ تلك الفضيلة الضرورية في جميع احوال الحياة ، وعلى الاخص للجنود الخاضعين المعامع لمدافعة عن الوطن . هاكم تعريب قصيدته الخالدة « الواجب على رأي التركي » .

« ما هو الواجب ؟ صوت منحدر من السماء وانعكاس العواطف الصادرة عن محدثنا . انا جندي . وهو ضابط اعلى مني : فأطأطئ الرأس لكل امر من اوامره بدون استفهام : أغمض عينيّ واقوم بواجبي !

لا اسأل عن سبب امره . ولا اتخله بمنخل دقيق . هو آمري : فلا استطيع مقاومته ، قد اقتنعت بصحة حقه . فعليّ ان اطيعه بلا قيد ولا شرط ، اغمض عينيّ واقوم بواجبي .

لا حق لي ولا منفعة ولا رغبة . بل عليّ واجب : فلا حاجة لي بشيء

(١) كلمة جعلها الشاعر على لسان شخص جبان في مسالك حياتنا الوعرة .

آخر. عقلي وقلبي لا يفكّران . بل يشعران بلزوم الطاعة . فيمتثلان اوامر الواجب : اغمض عيني واقوم بواجبي .

لولا صوت واجبي القوي . لما قلتُ بوجوب الآخرة . فان ذلك الصوت آت بلا شك مما وراء هذا العالم . والحق . اينما وجد . آت ايضاً من هناك . فانا اغمض عينيّ واقوم بواجبي !»

حياتنا الارضية سفر طويل ومُضنٍ في الغالب . الى الابدية . التي يخاربنا فيها الله تعالى بالسعادة الكاملة او بالتعاسة الكلية على حسب استحقاقنا. وقد ارادت حكمته الابدية السامية انحطاط قوانا الجسدية والنفسية في النيحوخة المدنّة . لنشعر شعوراً طويلاً اليماً بقرب رحيلنا من هذه الدار الفانية الى الآخرة . فنحسن التأهب لمثول امام الديان الرهيب . يخيّل لنا ان في قصيدة « الدُّلب المُسِنّ » للشاعر التركي جناب شهاب الدين (١٨٦٩–١٩٣٤) رمزاً لما يصيب بهاء الشباب والكهولة من الزوال التدريجي في اواخر حياتنا .

« الآن يتذكر هذا الدلب متحسراً ابهته في الزمن الغابر . اذ كان ظلّه ممتداً على الساحة كلها . الطيور الجذلى التي كانت تغرد في اغصانه منذ القدم . قد وجدته عارياً كئيبا . فطارت عنه . وكأن غصنه الاخير يد مبسوطة الى الآفاق . تستعطي السماء وسطح الارض ورقتين ! علّق الصيف الشمس الزاهية فوق هذه الشجرة الجوفاء . اما اليوم فلا تدفئها نار شمس من الشموس ! جسمها المتصخم لا يرضى حتى الآن بالسقوط . فيتعلق بالتربة كلما هبت تلك الشمأل القاهرة » .

الموت الخاتل : الذي يقطع حبل حياتنا : ويُخرج نفسنا من سجنها الجسدي الى دار القرار . ويسلبنا فجأةً كل ما اقتنيناه بالاف الجهود الجاهدة . من حطام هذه الدنيا . هو . بلا مراء : افصح خطيب يقنعنا بلزوم التجرد عن الخيرات الزائلة : لا يجوز البتة ان نجعلها اصناماً نعبدها ونصير عبيداً لها . بل يجب ان نسخّرها كلها لكي تساعدنا على خدمة الاله القيّوم . خالقنا ومولانا الوحيد . اليكم تعريب قصيدة سريانية من ديوان الشاعر الشهير عبد يشوع . اسقف مدينة نصيبين النسطوري . المتوفى سنة ١٣١٨ . قد وصف فيها . بغاية الابتكار والحيوية : بطلان جميع الخيرات الارضية : وهول مفاجأة الموت . وشيئاً يسيراً من السعادة السماوية : الفائقة كل ادراك .

« اذ كنت مجتازاً المقبرة: سمعت ميتاً ذا طبيعتنا يتكلم بدون لسان : لكنه

قد تبهي بالاشارة والعمل . فقال لي سراً :

« لماذا تنظر . ايها المشاهد . وتتأمل فيَّ . انا المحوَّل الى رماد ؟ قد كنتُ « انساناً لا يقل عنك من كل وجه . فارفع التسبيح للذي اسكنني في القبر . « واخرجني من العالم . ومنح سيري الكامل الراحة عند خروجي . والقاني في « مكان الظلام . كنت مثلك . وسوف تكون مثلي في آخر ايامك . اذ تنتهي « حياتك . ولن تجديك الثروة نفعا . تأمل فيَّ بانتباه ولاحظ اني قد حُرمت « كل شيء . وطُرحت في ديجور اللحد . في المحل الذي لا معزي فيه . « تصور تحركك الدُحى المنشورة عليَّ في هذا الختام . وتذكر انك انت ايضاً « سوف تأتي هنا . وتسكن هذه الحديقة . سوف تتساوى بالنباتة . ومتى ما « وانت . في ان يناديها الصوت الحبيبي من حيث يرحل مصروحين

« ايها المشاهد . كنتُ صائحاً . واذا عائد من عند الطبيب . واذا ملاك « الموت المدمر قد هجم عليَّ فجأةً . وانتهت تحت نظره حياتي وآلام جسمي ، « فاستراح من كروبه ؛ فالمجد للذي اعطاني برحمته الراحة ! لقد ذهلت عيناي « من الفرح ، واذناي من الاصوات الرخيمة ، وشمّي من الروائح المختارة ؛ « وفمي من الاقوال المفيدة ! لقد جمعني الاحباء والمعينون والخلان الاوفياء في « هذا القبر ، حيث ليس من ضياء منير . لقد طرحوني وابعدوني ناشحين عن « فراشي الشائق الى هذا التراب الحقير ؛ ثم انفصلوا عني بالجسم والنفس. « ومن ثم لا معزّي لي . ولي رجاء واحد سوف يرفعني من هذه الحفرة ؛ لاتهلل « في يومه المفرح .

« فلا تتكل ، ايها المشاهد ، على العالم ومجده الببغي ؛ قد اتكلتُ عليه « في البدء . ولم يُغدني يوم الموت . لقد نسي بقساوته كل ما ابديت له من « الحب . فأخرجني عارياً وفقيراً من مثوى غربتي عنده » .

قد حان لنا ختام هذه المقالة على بعض فرائد الشعر الغنائي في السريانية، العبرانية . المالطية ، المجرية . الفنلندية ، وعلى الاخص في التركية ؛ ويلذ لنا ترجيح كون قراء « المشرق » قد طربوا بها . انما الطرب تنعم النفس بمشهد مظاهر الجمال المحض . حيثما تجلى لها ، خصوصاً في الشعر ، فانه ، بلا مراء ، ملك الفنون الجميلة . والحال ان الشعر لا يرتقي الى ذروة الحُسن الا اذا احتوى ، مع سمو الافكار ونبل العواطف وكثرة الخيالات المبتكرة ورشاقة التعبير الوجيز ، كمالَ الطبيعة ، اي صورة حية لحالة من احوال نفوسنا ، في جهادهم الأليم على الارض ، وعطشها الدائم الى السعادة التامة .